فكاهات

رواية

العجب المفاجئ (١)

كان في لمبرديا امير عظيم الشان واسع الثروة يقال لهُ روبرتو لم يرزقهُ الله سوى ابنةٍ وحيدة سماها روزا فكانت تلك الابنة موضع عنايتهِ واهتمامهِ وقد وقف عليها جميع عواطفهِ واتخذها بغيتهُ من دنياهُ . ولما كان احد الايام اخذ الامير ابنتهُ وخرج بها يتمشى على ضفاف النهر فبينما هما هناك وقد جلسا على صخرةٍ تجاه النهر اذا جماعة غلمانٍ يلعبون على الرمال وكان بين هؤلآء الغلمان فتىً في الرابعة عشرة تلوح على وجههِ سمات الفطنة والذكآء ويظهر من ملامحهِ انهُ من ابنآء الكرام غير انهُ كان بين اصحابهِ ساكتاً منكسراً ورأى الغلمان منهُ ذلك وقد عرفوا انهُ غريب فكانوا يعبثون بهِ ويتدافعونهُ بينهم وهو صابر على فظاظتهم . ثم سقطت قبَّعة احدهم في المآء فامروهُ ان ينزل ويأتي بها فأطاع وألقوا لهُ غصناً من شجرةٍ ليجذبوهُ بهِ فلما بلغ الفتى طرف الغصن تركهُ الغلمان وكان الفتى لا يحسن السباحة فجعل يختبط في المآء وقد اوشك ان يغرق . فلما رأت ابنة الامير ذلك ادركتها الشفقة عليهِ فتوسلت الى ابيها ان يأمر الغلمان بتخليصهِ فصاح الامير بهم ان يسرعوا في انقاذ ذلك المسكين فلم يبالوا بهِ فشقّ ذلك على الامير

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

وبعدما قطعا مسافةً منها لمع في عيني روبرتو شيءٌ في وسط الظلام عرف للحال انهُ حديد بندقية وتلا ذلك صوت صائحٍ من القادم . ولما لم يجبهُ اذا بطلق نارٍ قد دوى في الفضآء وتبعتهُ صيحةٌ عظيمة فسقط روبرتو وجوادهُ الى الارض ولما رأت روزا ذلك وثبت عن جوادها الى الارض كأنها اللبؤة الفاقدة اشبالها وصاحت ويلٌ لكم يا ثعالب الليل تعالوا خذوا ما نملك ودَعُوا الارواح لمالكها . وكأنّ شدّة الرياح اعترضت صوتها فلم يسمعهُ سوى روبرتو وكان الرصاص قد اصاب جوادهُ فقتلهُ ولم يُصَب هو بسوء فوثب على قدميهِ وعطف الى روزا ليسكن روعها . ثم خطر لهُ ان اولئك القوم ربما كانوا مرسلين من قِبَل والدها لامساكهِ ولكي يغالطهم ويموّه عليهم معرفتهُ كلمهم بالفرنسوية بلهجتها الفصحى وقال من انتم ايها القوم وما شانكم اقتربوا منا ولا يرينَّكم من جهتنا خشيةٌ فاننا اعزلان من السلاح . وكأنّ ما فاه بهِ زاد في حنق اولئك الرجال وشراستهم فقذفوهُ بشتائم قبيحة وتقدّموا الى ناحيتهِ وكان مع احدهم مصباحٌ ضعيف فادناهُ منهما ثم صاح ويلٌ للرهبان فانهم جرثومة الشرّ . فقال زعيمهم نحن لا يهمنا الرهبان ولا العامّة ولكن يكفي انهما فرنسويّان فلا بد من قتلهما . فقال روبرتو اسمع يا هذا خذوا ما معنا واعفوا عن دمآئنا فاننا لم نجنِ في حياتنا ذنباً . فقال الزعيم اخرس يا رجل فكفاك ذنباً انك فرنسويٌّ ولا يجوز ان نُبقي على فرنسويّ . ثم امر اتباعهُ فاوثقوهما وقادوهما الى مغارتهم

ورأى روبرتو ان زعيم هذه العصابة لا يهمهُ المال ولا هو من قطّاع السبيل ولكنهُ رجلٌ ايطاليانيّ اقسم ان ينتقم من الفرنسيس لفادحةٍ

اصابتهُ منهم ايام استولى نابليون بونابرت على اواسط ايطاليا واستباح اهلها فكلمهم بالايطالية وقال ان كنتم ايها القوم ساخطين على الفرنسيس فدعونا وشأننا لاننا ايطاليانيان . فلما سمعوهُ يتكلم بالايطالية وقفوا مبهوتين ثم احاطوا بهما وقالوا من انتما واين تقصدان في هذا الليل . فقالت روزا اما اذا لم يكن بدٌّ من اطلاعكم على حقيقة امرنا فاسمعوا ما القيهِ اليكم ثم اخذت تقصّ عليهم حديثها حتى اتت على آخرهِ . فقال الزعيم ولمَ لم يقبل والدكِ ان يكون هذا الباسل بعلاً لكِ . قالت لانهُ رجلٌ فقيرٌ لا يُعرَف لهُ اهلٌ ولا والدان . فقال وكيف ذلك ايها الفتى . قال تشتت شمل أُسرتنا حين قدوم نابليون الى هذه الاقطار ولا ادري هل مات والدي ام لا يزال حيًّا يُرزَق وليس في يدي من المال ما يمكنني من البحث عنهُ . فزفر الزعيم زفرةً حارّة ثم قال جبر الله كسرك ايها الفتى وأظفرك بأُسرتك وانتقم لنا من ذلك الغاشم العتيّ جزآء ما جنى على الابرياء من الويلات والمظالم . قال فهل يأذن لي المولى ان استفهمهُ عن شأنهِ وما نابهُ من ذلك الوحش الضاري . قال انا احد امرآء الايطاليان من لمبرديا وقد كنت حاكمًا فيها وقضيت ايامي الاولى في العزّ والنعيم وقبل حلول الحوادث الاخيرة بسنة كنت قد تزوجت بفتاةٍ هي مثال الادب والكمال فلما وفد علينا ذلك الظالم بخيلهِ ورجلهِ اضطررت ان اهاجر فيمن هاجر وقد تقوض ركن عزي وسعادتي ونجوت مع زوجتي تحت جنح الظلام وفي اثنآء ذلك ادرك زوجتي المخاض فوضعت لي ابنًا في بيت راعٍ قبلنا عندهُ مدةً من الزمن ثم قضى الله على زوجتي على اثر ذلك الشقآء فقضت نحبها ولبثت اياماً ابكيها واسهر

على ضريحها . ولما لم تعد تمكنني الاقامة تركت ولدي عند ذلك الراعي وارتحلت الى سويسرا فاقمت بها الى ان اذن الله في كشف ظلّ ذلك العاتي واندحارهِ عن الوطن فعدت الى الراعي فلم اقف لهُ على اثر وها انا اليوم قد تجردت من زوجتي ووحيدي وبقيت ثاكلاً حزينًا لا اجد سلوةً ولا عزآءً ولذلك فقد آليت ان لا ارجع الى وطني واملاكي حتى اقتل كل فرنسويّ اصادفهُ ومعي هؤلآء الجماعة وما فيهم الا من اصابتهُ داهيةٌ من مثل ما اصابني وقد صممنا جميعًا على طلب الانتقام . ثم صاح قائلاً لتمحَ فرنسا عن وجه الارض وليمت الفرنسيس . فكرر اصحابهُ تلك العبارة ثلاثًا بصوتٍ واحد فكان لها في تلك الغابة صدًى بعيد وعقبها سكوتٌ عميق

والتفت الزعيم الى روبرتو فرآهُ غائصًا في لجةٍ من الافكار وقد استولت عليهِ الحيرة والجمود فقال ما بالك ايها الفتى وهل تشكو من شيء . قال اشكو من شقآئي ومن غموض حياتي . ذكرت ايها الامير انك تركت ولدك عند الراعي فهل دعوتهُ باسم قبل ان تفارقهُ . قال نعم دعتهُ والدتهُ روبرتو على اسم اخيها الذي كان حاكمًا في البندقية . فشهقت روزا ووقف روبرتو وقال وما اسم الراعي الذي تركت ولدك عندهُ . قال اسمهُ برنردو . قال وما اسمك انت . قال الامير تونلدو . فصاح روبرتو وقال انا اسمي روبرتو وقد ربيت عند رجلٍ يسمى برنردو ربّاني عندهُ الى ان ضاقت احوالهُ فصرفني لالتمس قوتي واخبرني اني وُلدت عندهُ وان ابي يسمى تونلدو وأمي يقال لها تريزا . فقم يا والدي وقبّل ابنك فقد اعادهُ الله عليك ثم القى نفسهُ في حضن والدهِ فتعانقا وبكيا وبعد ان اشتفيا من غليل

وانتهرهم فتفرّقوا هاربين وهم يضحكون مما فعلوا . ورأى الامير ان الفتى قد خارت قواهُ وكانت ابنتهُ تتوسل اليهِ بالدموع لتخليصهِ فالقى بنفسهِ في المآء وانقذ الغلام سالماً الى البرّ ولما بلغاهُ وقف الفتى بمزيد الاحتشام وشكر الامير على انقاذهِ بأرقّ العبارات . فتأثر الامير لكلامهِ وقال لهُ من انت ايها الفتى وابن من . قال اما انا فاسمي روبرتو واما ابي فلا اعلم عنهُ شيئاً قال وكيف ذلك أوَليس لك هنا مكانٌ تأوي اليهِ ولا احدٌ من ذويك . قال مأواي شوارع المدينة وذويَّ ارباب الشفقة والاحسان ولم يكد يتمّ عبارتهُ هذه حتى خنقتهُ العبرات . فازداد الامير تأثراً من حالهِ وقال لهُ لا بأس تأتي الى بيتي وتقيم عندي فاجعل لك خدمةً بين اشغالي فلبى الفتى شاكراً وتبع الامير وابنتهُ حتى وافوا المنزل فكان في جملة اهلهِ

وبقي روبرتو سنتين في بيت الامير مثالاً للطاعة والادب والرصانة فملك قلوب كل من في القصر ولا سيما قلب روزا فانها كانت لا تسرّ الا برؤيتهِ ولا ترتاح الا الى محادثتهِ

وفي ذات يوم استدعى الامير ابنتهُ واعلمها ان احد ابنآء الاعيان طلبها زوجةً لهُ وقال لها انهُ يودّ ان يراها سعيدةً قبل ان يفارق هذه الدنيا وقد عين للخطيب يوماً يأتي فيهِ ليرى خطيبتهُ ويلبسها خاتم العهد . فاجفلت روزا لهذا الخبر الغريب وتعجبت من قطع والدها بمثل هذا الامر قبل مشورتها والوقوف على رضاها فقالت لهُ عجباً يا ابتِ وكيف علمت اني اوافق على هذا الامر وانا لا علم لي بشيءٍ منهُ ولا اعرف الرجل الذي جعلتهُ نصيباً لي . نعم لست انكر ان طاعتك واجبةٌ عليّ لكن لا فيما

اشواقهما قالت روزا قم يا روبرتو ودَع ابنة خالك تقبّل زوج عمتها فاذا كان ما سمعتهُ حقيقةً كانت والدتك اخت ابي روبرتو حاكم البندقية . فلما سمع تونلدو ذلك ابتهج ونهض اليها فعانقها وقبّلها وقضى الجميع ليلتهم في تلك الغابة على اتم الصفآء والسرور حتى اذا كان الصباح نهضوا جميعاً فعادوا الى لمبرديا

اما والدا روزا فلما اصبحا بعد ليلة انصرافها استبطأا خروج ابنتهما من غرفتها ولما طال انتظارهما لها دخلا الغرفة فاذا هي خالية وافتقدا الخادم روبرتو فلم يجداهُ فوقع هذا الحادث عندهما اشدّ وقعٍ وارسلا يبحثان عن الفتاة فلم يقفا لها على اثر واستولى الغمّ على ذلك المنزل وندم والدها على ما عاملها بهِ من التشديد والغلظة وكان يزيد عليهِ تأنيب والدتها لهُ على ذلك فيقضيان اوقاتهما بالمرارة والاسى

ولما عاد الامير تونلدو بجماعتهِ الى لمبرديا كان اول شيءٍ فعلهُ انهُ انطلق الى بيت ختنهِ روبرتو وفي صحبتهِ ولدهُ روبرتو وروزا فقصّ على والديها ما كان من الحديث المتقدم ذكرهُ وعرّفهما ان روبرتو هو ابنهُ الضائع الذي قضى هذه السنين كلها في البحث عنهُ فانقلبت احزان ذلك البيت الى افراح وقام بعضهم الى بعض فتعانقوا وهم يحمدون الله على اجتماع شملهم وجدّدوا مسرّات العرس ولبثوا بعد ذلك يودّعون يوم فرحٍ ويستقبلون مثلهُ الى ان ادركهم هادم اللذات ومفرّق الجماعات

يتعلق بحياتي واذا كنت كما تقول تحب ان تراني سعيدةً فقد كان الاجدر ان تترك هذا الاختيار لي لأتولى بنفسي انتقآء من ارى اني اكون سعيدةً معهُ . فلم يستغرب الامير هذا الجواب من ابنتهِ لما كان يعهد من نجابتها وذكآئها غير انهُ استآء من مقاومتها لهُ فقطب حاجبيهِ وقال لها أوَتنقضين ما وعدتُ بهِ يا روزا وتمّ قضآؤهُ من قِبَلي . قالت معاذ الله يا ابتِ ان يكون نقضي لهُ استخفافاً او عصياناً ولكني اعلم اني اذا قُرِنت بمن لا اختارهُ كان ذلك سبب تنغيص لي ولك وجرّ عليك ندامةً حين لا ينفع الندم . قال واذا تركت لكِ هذا الخيار فهل انتِ واثقةٌ بان يكون من تختارينهُ شخصاً يسرّني . قالت نعم بلا ريب . قال ومن هو هذا الشخص . قالت هو ربيبك روبرتو فقد ملتُ بكلي اليهِ وهو يحبني حباً لا مزيد عليهِ فاذا تزوجت يوماً ما فلن ارضى سواهُ بعلاً لي . قال تباً لرأيك ما اسخفهُ وابعدهُ عن مواقع افكاري فاني بينما افكر في تزويجكِ بالشرفآء والاغنيآء وذوي الجاه والحسب اراكِ قد تعلقتِ بصعلوكٍ حقير لو لم نَجُد عليهِ بفضلات طعامنا لكان الآن منسياً من عالم الوجود . قالت أوَتظنّ يا ابي ان شرف الانسان بمالهِ وحسبهِ ولو لم يكن في نفسهِ شريفاً أوَلا يفضَّل مثل روبرتو بما فيهِ من الادب والصدق وصفآء النفس وطيب السريرة على كثير من هؤلآء الاغنيآء المتصفين بما تعلمهُ من البذآءة والفجور والتمرغ في اوحال المعايب والنقائص وهل يغني عن امثال هؤلآء ان يكون في صندوق احدهم كذا من المال ينفقهُ على مذامّ الامور او ان يقول ابي فلان او جدّي فلان وهو ليس من ابيهِ او جدّهِ ولا قُلامة ظفر . قال

حسبكِ يا روزا من مثل هذه الافكار فلن يكون روبرتو سوى خادمٍ لكِ ولا يكون زوجكِ الا من اخترتهُ انا فاذهبي واستعدّي لما امرت ان يكون . ثم دخل غرفتهُ وذهبت روزا الى الحديقة فجلست على مقعدٍ هناك واخذت تفكر فيما سمعتهُ من ابيها وبينا هي كذلك اذ جآء روبرتو فرآها كاسفة الوجه دامعة الطرف فوقف بازآئها وسألها عن شأنها فاخبرتهُ بما دار بينها وبين ابيها فاخذ روبرتو ينصح لها ان تقلع عن محبتهِ لانهُ لا يملك شروى نقير ولا يدري ما يكون من مستقبلهِ وان تطاوع اباها في الرضى بمن اختارهُ لها وتسلو هذا الشقيّ الحظ الذي طرحهُ القدر في طريق سعادتها . فقالت اوأنت ايضاً تقنط من رحمة الله الا تدري ان لك رباً لم يخلقك وهو عاجز عن ان يأخذ بيدك ويعولك . كلاّ اني لن اتخذ سواك ولست بمطيعةٍ لوالدي في هذا الامر ولو افضى الى اراقة دمي ولكن قل لي هل تحبني انت وهل توافقني على ما اريد فعلهُ . قالت هذا وقد شغفتهُ برقّة حديثها وجمال طلعتها فصاح نعم احبكِ يا ملَك سعادتي وانا اطوَع لكِ من بنانكِ فانظري ماذا تأمرين . قالت حسبي هذا فكن على اهبةٍ لما اشير بهِ اليك في حينهِ

وقضت روزا بعد ذلك عدة ايام كان همها فيها استمالة والديها الى موافقتها واقناعهما بانهُ لا يجوز لهما ان يُكرِهاها على الاقتران بمن لا تهواهُ فلم يغنِ ذلك عنها شيئاً ولكن والدها زجرها واهانها وانذرها بقرب اليوم الذي ضربهُ موعداً للخطيب . ولما يئست من لين والدها ذهبت في تلك الليلة الى غرفتها فجثت امام سريرها وابتهلت الى مدبر الكائنات ان

يأخذ بيدها ويرشد مسعاها ولما رقد كل من في القصر وخيّم السكون على ارجآئهِ نهضت فكتبت بضعة اسطرٍ لوالديها تظهر لهما فيها ما ركبا من الخطآء والقسوة في اصرارهما على اكراهها وختمتها بوداعهما ثم تركت الكتاب على سريرها وحملت كل ما كان في غرفتها من الحلى والحجارة الكريمة والنقود وانسلّت الى غرفة الخدم لتوقظ روبرتو فلم تجدهُ في سريرهِ . فوقفت تفكر هنيهةً ثم خرجت الى الحديقة وقد اضطربت افكارها ولم تدرِ كيف تؤوّل معنى غيابهِ وبينا خطت بعض خطواتٍ شعرت بصوتٍ تحت نافذة غرفتها فاقتربت فاذا روبرتو جاثٍ على التراب وهو يبتهل الى الله ان يلهمهُ ماذا ينبغي ان يفعل . فلم تلبث ان جثت بجانبهِ ولما اتمّ صلاتهُ اسرّت اليهِ ما عزمت ان تفعلهُ ثم قادتهُ بيدهِ الى باب الحديقة السرّي فخرجا من هناك وانطلقا تحت ستر الظلام ولما فصلا عن المنزل استأجرا لهما عربةً فركباها وقصدا بلدةً اخرى على مسافة عدة ساعاتٍ فبلغاها عند طلوع الفجر ثم صرفا العربة وتوجها الى ديرٍ هناك فدخلاهُ وطلبت روزا مواجهة رئيسهِ فلما وافى قصّت عليهِ ما كان من حديثها وحديث والديها ولما وثق بصحة كلامها لم يبطئ ان اتمّ عقد روبرتو عليها ثم ادخلهما الى غرفةٍ فاقاما بياض نهارهما في الدير وعند المسآء البسهما ملابس الرهبان واركبهما على دابّتين من دوابّ الدير وصرفهما مزوّدين ببركتهِ ودعآئهِ . فخرجا يجدّان السير وقد عزما على مزايلة تلك الولاية باسرها والتقدم الى حدود فرنسا وكانا يسيران في الليل وينزلان في النهار الى ان مضى عليهما اربعة ايام . وفي مسآء اليوم الخامس عاودا المسير وكانت في طريقهما غابةٌ كثيفة فدخلا في تلك الغابة

الشعر

(تتمة ما في الاجزآء السابقة)

وقد قدّمنا ان الاغراض الشعرية على ضربين احدهما ما يُقصَد بهِ العمل في القلب والتلاعب بحركات النفس وانفعالاتها فيتحرّى فيهِ ذكر الاحوال المهيجة للحزن او الفرح او الغضب او الأَنفة او غير ذلك وهو الاصل في غرض الشعر كما سبق الايمآء اليهِ . والثاني ما يُنحى فيهِ الى إعمال الذهن والتأثير على القوى المدركة بما يخيَّل لها من الصور المبتدَعة والتماثيل المزخرفة وهذا الضرب اقرب الى مذاهب البلاغة منهُ الى اسلوب الشعر وعليهِ غالب شعر العرب لولوعهم بالإغراب وبنآء لغتهم على التفنن في طرق البلاغة على ما هو معروف من مذهبهم في سائر كلامهم . والأمثلة من هذا اشهر من ان تذكَر وقد مرّ منها في الاجزآء الماضية ما يغني عن الاطالة هنا . واما المعاني الوجدانية فالوارد منها في شعرهم عزيزٌ نادر لا يحضرنا منهُ الا امثلةٌ قليلة نورد بعضها في هذا الموضع بمنزلة نموذج يظهر بهِ الفرق بين المذهبين . فمن ذلك قصيدة مالك بن الريب التميمي يرثي نفسهُ وكان قد خرج مع سعيد بن عثمان لما ولي خُراسان فلما كان في بعض الطريق اراد ان يلبس خفّهُ فاذا بافعى فيهِ فلسعتهُ فلما احسّ بالموت انشأ هذه القصيدة ومنها يقول

تفقدتُ من يبكي عليَّ فلم اجد ... سوى السيف والرمح الرُديني باكيا
وأشقرَ خنذيذٍ يجرُّ عنانهُ ... الى المآء لم يترك لهُ الموت ساقيا

يريد بالاشقر مهرهُ والخنذيذ الجسيم . ومنها